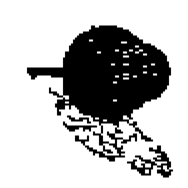


همدان زيد دماج

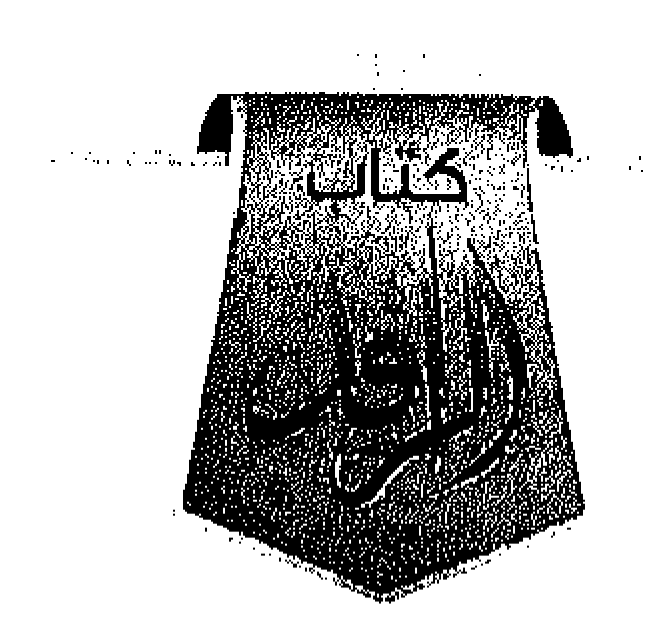
ربما لا يقصدني

العدد 088 | يوزع مجاناً مع مجلة الرافد | فبراير 2015



منذ أن باشرت مجلة «الرافد» إصدار «كتابها الشهري» قبل أربع سنوات، بالترافق مع العدد؛ كانت الاستجابة كبيرة جداً.. سواء من قبل القراء أو المساهمين في السلسلة، ولهذا السبب قررت هيئة التحرير إضافة كتاب جديد، بحيث يصدر كتابان مع كل عدد، بالإضافة إلى «كتاب الرافد الإلكتروني»، الذي ينشر على موقع المجلة.

بهذا نكون قد وضعنا عتبة تفاعلية جديدة مع ذاكرتنا الجمعية المقرونة بسؤال الوعي والتاريخ والمستقبل، وستحرص سلسلة «كتاب الرافد» الشهري على التنويع وحسن الاختيار المقرون بقواعد معايير فكرية وإبداعية ناظمة لأسباب الرسالة الثقافية للمجلة.



العدد 088 ـ فبراير 2015
يصدر مجاناً مع مجلة الرافد

ربما لا يُصدّقني ....!

دائرة الثقافة والإعلام - حكومة الشارقة

ص.ب. 5119

هاتف: 5123333 9716+

بـرّاق: 5123303 9716+

www.arrafid.ae

◄ المواد المنشورة تعبر عن كاتبيها ولا تعبر بالضرورة عن رأي دائرة الثقافة والإعلام

◄ وكلاء التـوزيع: دولة الإمارات العربية المتحدة: شركة الإمارات للطباعة والنشر والتوزيع، دبي، ت: 3916501 /04، قطر: دار الثقافة للطباعة والصحافة والنشر والتوزيع: ت: 414482 البحرين: دار الهلال للتوزيع ت: 534561 - 05355590، اليمن: دار القلم للنشر والتوزيع والإعلام صنعاء: ت: 272562 - 0272563، المغرب: الشركة العربية الإفريقية للتوزيع والنشر والصحافة «سبريس» الدار البيضاء: ت: 249200، مصر: مؤسسة أخبار اليوم: ت:5782700، سوريا: المؤسسة العربية السورية لتوزيع المطبوعات.



مجموعة قصصية

همدان زيد دماج

الشارقة

إهداء

إلى:

فراس، شهاب وليان.

تقديم

زمن القصة القصيرة

يتحدثون عن زمن الشعر وزمن الرواية، عن زمن السينما وزمن الصورة؛ لكنهم لم يتحدثوا ولا مرة واحدة عن زمن القصة القصيرة؛ هذا الفن السردي الوجيز البديع الذي يثري الوجدان البشري منذ قرنين وأكثر، ولا يأخذ من وقت القارئ الكثير. وكما لمع نجوم في دنيا الشعر والرواية، وظهر فيهما عمالقة كبار، فقد لمعت في دنيا القصة القصيرة نجومٌ وظهر عمالقة أيضاً، ومن ذاك الذي لا يتذكر «تشيخوف» و«جي دي موبوسان» على مستوى العالم، ويوسف إدريس وزكريا تامر على المستوى

العربي؟! ولا ننسى في هذا السياق أن القصة القصيرة أسرع في التطور والأخذ بأسباب التحديث أكثر من الشعر ومن الرواية، فقد بدأت حكاية، ثم تطورت إلى فكرة، وهي الآن في طور الأقصوصة الومضة، في رحلة من التطور المتدرج والمتلاحق شكلاً وموضوعاً.

هذه المجموعة القصصية هي الثانية للشاعر والروائي همدان زيد دماج، وهو واحد من المبدعين اليمنيين الشبان متعددي المواهب. وإذا كانت مجموعته الأولى، «الذبابة»، قد مثّلت القصة القصيرة جداً، فإنه في هذه المجموعة الجديدة يتجاوز الإيجاز، ويشعر بأن الومضة بتعبيرها السريع لم تعد كافية لتصوير المزيد من خلجات الروح واستقصاء هموم النفس وتصوراتها لنبضات الواقع المحيط بها وبالآخرين. لقد اتسعت مساحة القص هنا نسبياً، وصار في إمكان القصة أن تأخذ القارئ إلى أكثر من موقف، في أسلوب سردي بالغ الرهافة والإمتاع. وسيلاحظ القارئ أن عدداً من قصص هذه المجموعة تمت كتابتها في مناخات تختلف عن أجواء اليمن، وعن سياق حياة الناس فيها؛ إلاّ أنها لا تخلو من إحساس بالوطن البعيد مكاناً، والقريب وجداناً، وما يدور فيه من أحداث ومستجدات في الحياة العامة شديدة الخصوصية والإيحاء.

وتجدر الإشارة، في هذا التقديم المقتضب، إلى الدور الذي يقوم به القاص همدان دماج، وأمثاله من كتّاب القصة الشبان، في تحديث القصة القصيرة في اليمن، والخروج بها من أسر القواعد

التقليدية، والاقتراب بلغتها من لغة الشعر، فضلاً عن مواكبة التجديد الحاصل في عدد من الأقطار العربية في تقنيات الحكي ومكونات البنية السردية. وهو جهد جدير بالتنويه، فقد وصلت معه القصة القصيرة في اليمن إلى مشارف النضج التام، وعدم الاتكاء على جهود الآخرين. ويمكن للدارس -الآن- أن يرصد حالة شعورية وفنية مشتركة بين كتّاب القصة القصيرة الحديثة في الوطن العربي من المغرب حتى عُمان، ولا تكاد القصة القصيرة تختلف في هذا المسار التطوري عن الشعر في شكله الأحدث أو الأجد، وفي هذا كله فأل حسن.

د. عبد العزيز المقالح

سلامات يا دكتور!

كان هناك أيضاً... رأيت جسده يتخبط في عتمة الليل الموحش. كان الظلام لا يزال يلف الشارع، وهدوء الفجر لا يعكره سوى أصوات الرياح الباردة تصطدم بالأبواب الحديدية لدكاكين الحارة المقفلة. كان يترنح بإنهاك واضح، يختبئ رأسه بين ضفتي ياقة معطفه الشتوي المثقل.

عندما اقتربت منه حاول أن يبتعد، فترددت، لكنه كان قد صار من القرب بحيث لم يستطع أي منا أن يتجنب الآخر دون أن يترك انطباعاً لدى الآخر بالشك والريبة، فآثرنا المواجهة. ابتسم

لي بتصنع واضح، وهو ما كنت قد فعلته أيضاً. بادرته بالسلام لكنه لم يرد... وفاحت رائحة فمه فأيقنت أنه ثمل.. زاد فضولي فاقتربت منه أكثر، لكنه نهرني بشدة. يا إلهي..! لقد عرفته ولا بد أنه قد عرفني أيضاً... اللعين... كيف ظهر لي فجأة هذا المساء؟ منذ مدة لم نلتق... كانت علاقتنا قد أصابها الفتور مؤخراً منذ بدأ ينتقدني بحدة متجاوزاً حدود الصداقة التي بيننا، فلم يعد يطيقني، ولا أنا أيضاً. أما وقد تواجهنا الآن فلن يكون بمقدور أي منا تجاهل الآخر... كان موقفاً عصيباً دون شك؛ لكننا آثرنا الصمت وسرنا جنباً إلى جنب، نترنح سوياً كلما تلاصقت أجسادنا تنافرنا بشدة. وارتفع فجأة صوت الأذان، وتجاهلت نظراته اللائمة، ثم ما لبثت أن تعثرت قدماي وانبطحتُ على صدري وانقطعتْ أنفاسي لوهلات قصيرة...

كان قد انفجر ضاحكاً ساخراً مني قبل أن امتدت يده تبحث عن شيء تستند إليه. كان الدم قد احتقن في عروقي وهو لا يزال يضحك، فما كان مني إلا أن التقطت حجراً مجاوراً وقذفته به، فصرخ صرخة حادة وخرّ صريعاً على الأرض، وسالت الدماء من رأسه... توقف عن الضحك وشرع بالبكاء يكيل لي كل ما أحفظه من شتائم..

خيم الصمت مرة أخرى. حاولتُ أن أتحسس الجرح النازف من

رأسي بينما استلقى هو بتهالك على الرصيف بجواري. كان الشارع لا يزال مظلماً لكن أجساد المصلين بدأت بالظهور من طرف الشارع. وما هي إلا لحظات حتى هرعتْ أصواتٌ نحونا.. تلفتُّ أبحث عنه فلم أره.. بينما امتدت أيادٍ كثيرة نحوي تساعدني على النهوض..

ماذا حصل..؟

صرخ أحدهم متسائلاً.

وجدناه للتو هكذا...

قال صوت آخر.

كنت أستمع لحواراتهم بلا وعي... لا أزال أبحث عنه لكن دون جدوى.. لقد اختفى..

هل هو بخير..؟

ضم رأسه جيداً...! لا بد من إسعافه...

من فعل به هكذا..؟! لا بد من إخبار أهله..

لا وقت الآن لهذا..

كنت قد بدأت أستعيد وعيي قليلاً.. واستطعت أن أميّز وجه أحد الجيران. تجنبتُ بحذر أن يشتم رائحة فمي أحد، وانسقت

بانصياع لإرشاداتهم. همس أحدهم في أذني مشجعاً:

سلامات يا دكتور... سلامات إن شاء الله..

أكتوبر- لندن 1998

* * *

نـوال

كانت تشعر ببرد مكيفات الصالة يخترق عظامها باستمرار.. أمالت رأسها على كتفه العريض وتابعت أحداث الفيلم غير آبهة بيده المتوحشة التي اندست من تحت معطفها الصيفي وظلت تعبث بآلية منتظمة بأماكنها الحساسة.. لطيفٌ هذا الزنجي.. التقت به من فترة قصيرة ودبر لها بسرعة عملاً جيداً.. كان شغوفاً بها.. فكرت بالأجر الكبير الذي ستحصل عليه من هذا العمل فابتسمت واعتدلت في جلستها تاركة يده تلهو كما تشاء.

***

خلعت نقابها وشرشفها الأسود في الغرفة المجاورة مع رفيقاتها... كانت ضحكاتها مميزة... دخلت إلى الغرفة يعلو وجهها الجميل اضطراب خفيف... حيتهم بلطف وبحياء... نظر إلى ما انكشف من ساقيها الرشيقين وصدرها النافر فشهق إعجاباً.. يا لها من جميلة...! تشبه إلى حدّ بعيد جميلات الإعلانات التجارية... ظل مشدوهاً لفترة طويلة لم تتوقف عيناه فيها عن تفحص جسدها العذب وقوامها الرائع وبياض ساعديها وكتفها العاري وصدرها البض الناعم غير مصدق كيف يخفي النقاب كل هذا الجمال؟ سرت في جسده رعدة خفية هزته تماماً... لاحظ أصدقاؤه ذلك فتركوها له وانشغلوا بالأخريات.. شغف بها تماماً.. كانت خجولة.. يبدو أنها لم تتعود على أجواء الغراميات السرية تلك كصديقاتها الأكثر احترافاً وخبرة... لا بد أنها مبتدئة.. تواعد معها كثيراً ووقع أخيراً، كما كان يتوقع، في حبها المجنون... عرف اسمها الحقيقي لكنه ظل يدعوها باسمها الذي عرفها به أول مرة... حتى عندما استجوبته الشرطة البريطانية بعد سنين عدة كان يدعوها بنفس الاسم.. (نوال).

***

لوّح بيده إلى مودعيه ودخل صالة المغادرة مسرعاً بعد أن رآها تكمل معاملة الجوازات.. كانت الخطة تسير على ما يرام إذاً.. عندما

أقلعت الطائرة كانت يداهما تتشابك بلهفة بعد أن استطاع أن يتدبر الأمر مع صديق عزيز في مكتب الطيران فحجز لهما مقعدين متجاورين.. قالت له إنها تريد أن ترى العالم من النافذة.. فكان لها ذلك..

***

قالت له وقد أعيته القبلات أنها تريد أن تمارس عملاً ما كبقية زملائها في معهد اللغات.. سيساعدها العمل على اكتساب اللغة.. ظلت تقنعه طويلاً.. وافق في الأخير مرغماً رغم قلقة الكبير.. كان يعرف أنها لم تعد له وأن محاولاته بامتلاكها بدأت تضمحل رويداً رويداً.. منذ تلك اللحظة التي رآها فيها، قبل أسبوع، تلهو مازحةً بشعر زميلها الإيطالي الذي كان يحاول تقبيلها.

***

كان يبدو سخيفاً وقد أحرقته الغيرة العمياء... صفعها بقوة يوماً ما... هددته بالاتصال بالشرطة فلم تعد تهديداته الصغيرة تخيفها.. بل لم يعد هناك من يستطيع كبح جماح خيالها المجنون.. كانت تشعر بانتصار عظيم وهي تدرك أنها تستطيع أن تفعل ما تريد... لقد أصبح لها أصدقاء كثيرون... ولم يكن ما تبقى من حبها له كافياً لصدها عن عزمها بتركة نهائياً... أحس

بأنه حشرة صغيرة تحاول تسلق جدار لزج.. كان تمردها حتمياً.. لكنه كان مؤلماً بالنسبة له.. ومنذ ذلك اليوم أدرك أن علاقتهما كانت قد انتهت..

***

منذ فترة طويلة لم تتواصل معه... كان يسمع عنها فقط من أصدقاء مشتركين ما لبثوا أن تفرقوا جميعاً.. قاوم شعور الهزيمة طويلاً. وصلت (نوال) بعد ذلك في ذاكرته الحدث الأكثر تأثيراً في حياته التي لم يكن يعرف، وهذه طبيعة كل البشر، أنها ستنتهي بعد دقائق من الآن.. لماذا يا ترى تذكرها الآن؟ حدث نفسه متسائلاً.. ولماذا أصر سائق السيارة (البيجو) على شراء (القات) من هنا؟ فالرحلة لا تزال في بدايتها وسيمرون بأسواق (قات) عديدة في طريقهم الطويل الصاعد إلى العاصمة. كانت السيارة قد توقفت بشكل عشوائي على جانب الطريق ونزل سائقها النـزق غير آبهٍ باحتجاجات الركاب متوجهاً نحو كشك حديدي مجاور ما لبث أن تبعه إليه بعض الركاب لشراء (القات) أيضاً. زحزح جسده المحشور في الكرسي الخلفي... كان مرهقاً من السفر ومن زحمة الركاب والشمس الحارقة التي كوت ظهره المبتل عرقاً في المؤخرة. كانت سيارة فارهة قد توقفت وبنفس الأسلوب العشوائي، على الجانب الآخر من الطريق، استطاع، رغم انعكاس أشعة الشمس على هيكلها الأنيق، أن يلمح تقاسيم وجه امرأة جميلة بداخلها.. أشعل

سيجارته الأخيرة فالتصق دخانها بدخان ركاب المقاعد الأمامية الذين أعياهم انتظار السائق فبدأوا بعصبية يضغطون على بوق السيارة لاستعجاله بينما كانت عيناه لا تزالان تراقبان المرأة الجميلة داخل سيارة الضيافة الحكومية الفارهة التي أزعجتها نظرات الباعة والفضوليين، الذين يكتظ بهم سوق «النجد الأحمر» في مثل هذا الوقت من النهار، فأدخلت ذراعها البيضاء المرتخية على حافة النافذة إلى الداخل ورفعت قليلاً زجاج النافذة.

***

تكومت أجساد الركاب مرة أخرى وبدأت السيارة بالتحرك وهو لا يزال يراقبها.. وفجأة استيقظت حواسه الناعسة ومرّ خاطرٌ سريع في عقله ما لبث أن تحول إلى يقين... حاول أن يلتفت إلى الخلف ليرى المرأة مرة أخرى، لكنه لم يستطع تحرير جسده المحشور بسهولة وعندما سنحت له الفرصة بالنظر إلى الخلف هالهُ منظر إطاراتٍ ضخمة لـ«قاطرة لنقل الغاز دهست في حادث مروري مريع الجانب الخلفي لسيارة بيجو وأودت بحياة خمسة من ركابها» كما سيُكتب الخبر بخط صغير في الصفحة الأخيرة من الجريدة اليومية في صباح اليوم التالي.

لندن – صيف 2003

***

قصيدة لن يقرأها أحد...

تؤذيك الليالي الصيفية، ليس بحرارتها فقط، بل بحشراتها النشطة التي تعبث بسكون الليل قرب مصباحك المضيء على الطاولة. تُغلِق النافذة بإحكام ومهارة، فخوفك من الحشرات مترعرعٌ في صدرك منذ الطفولة... ولهذا تستأنس للفراشات «غير المؤذية» – كما تحب أن تسميها – وتحب الذباب عندما تتذكر البعوض، ذاك الذي أدماك كثيراً وأرّقك حدّ الجنون منذ زمن بعيد في إحدى الليالي الصيفية الخانقة بزنزانة السجن المركزي في «تعز»... كرهك، بل هلعك، من

العناكب ذات الأحجام الكبيرة يتربع على عرش خوفك بلا منازع.

انتظر قليلاً... ها هي يدك اليسرى، التي اتكأت عليها لتسند جسمك وأنت تغلق النافذة، قد سحقت شيئاً ما لم تنتبه لوجوده، رغم حذرك الشديد من مسامير الطاولة البارزة في أطرافها... تقفز إلى الهواء ناكزاً عندما تشعر بنعومة جسد ذلك الشيء... هذا أمرٌ طبيعي لا يمكنك أن تخجل منه، تحدث نفسك هكذا وقد هممت بالعودة إلى الطاولة – بعد رفعك الكرسي المقلوب – ورؤية ذلك الشيء الذي أفزعك كثيراً. تنظرُ من مسافة كافية فتجد فراشةً رائعة الجمال والألوان ترقد بسكون تام وقد فردت جناحيها على سطح الطاولة الأملس.

«لقد قتلتها أيها الشرير...!» تخاطب نفسك بلوم ويسكنك شعورٌ بالأسى وأنت تتأمل الفراشة وقد تماوجت ألوان جناحيها مع انعكاس ضوء المصباح. تدرك أن هذا التموج قد ازداد نوعاً ما، وأن الفراشة تتحرك بشكلٍ طفيف... طفيف جداً... بالكاد استطاعت عيناك الساهرتان التِقاط حركة قرونها. إذاً لم تمت تلك المسكينة كما ظننت!! حسناً... هذا يستدعي أن تفرح، وأن ينزاح عنك حملٌ ثقيلٌ من الندم المتزايد، لكن هرموناتك النووية تفرز، بدلاً من ذلك، غضباً مهموماً لم تفهمه لوهلات... انتظر..! هكذا إذاً... هي تحتضر... هذا ما أسعفكَ به تفكيرك لينقذك من

الحيرة. إنها تتألم الآن، وليس هناك أدنى أمل أن تعيش هذه الفراشة بعد أن «فُعِصتْ» بهذا الشكل القاسي... تعرف هذا جيداً، كما تعرف ما عليك عمله لإيقاف عذابها الذي قد يطول لدقائق كثيرة... فالتعيسة قد لا تسلم روحها حتى صباح الغد... هذا احتمال كبير... هل عليها أن تتألم كثيراً لتلقى المصير نفسه الذي تستطيع أن توصلها إليه الآن، وبدون كل هذا العذاب..؟!! موتٌ سريعٌ هو أفضل ما يمكنك تقديمه لهذه الفراشة الصغيرة في لحظات حياتها الأكثر قسوة ومشقة، والتي كنت أنت سببها دون أن تقصد. تتذكر نُبل قرار قتل حصانٍ جريحٍ يتلوى ألماً... يعجبك هذا التشبيه... لا أحد غيرك يمكن أنّ يفكر بهذا القدر من الحنان والعطف..! فبالله عليك، هل سيفكر أيٌّ من زملائك في اتحاد الأدباء في أمر هذه الفراشة كما تفعل الآن!!! تحدث نفسك وأنت تُقلّب صورهم في مخيلتك، وتجيب سريعاً منتشياً: بالطبع لا..!

ترفع يدكَ عالياً بوقار وتهوي بها على جسد الفراشة التي ما إن أحست بقرب قبضتك منها حتى انتفضت مبتعدةً عن ظِل يدك المرسوم على سطح الطاولة... يدك بالتأكيد واصلت الهبوط بسرعة واصطدمت بهذا السطح... وتأكد لك كم كانت الضربة ساحقة عندما تطايرت أدوات إبداعك بعيداً: أقلاماً ودفاتر، أوراقاً وكتباً،

و... مصباحك الكهربائي، وصورتك ببروازها الذهبي... وعلبة حبرك الخاص الممزوج بلونه القاني الذي تكتب به قصائدك الرائعة. مهلاً...! هل تتذكر الآن أنك نسيت أن تغلق العلبة قبل أن تغلق النافذة؟! كان منظر الحبر وقد سال من علبته الملقاة على سجادتك الغالية يؤلمك أكثر من أي شيءٍ مضى حتى الآن...!!

يفور غضبك وتسري في دمائك الحالمة شهوة صارخة للانتقام. تبحث عن الفراشة بتلهُّفٍ مخيف... تجدها على الطرف الآخر من الطاولة وهي تضرب بجناحيها بقوة محاولة الطيران... تندفع نحوها بجنون، لكنها تطير فارةً منك متخبطة على جدران الغرفة... وتبدأ المطاردة... الفريسة تناور بقوة صيادها المسعور... أقدامك الآن تطبع على حواف السرير وعلى موكيت الغرفة حبراً ذا لون خاص يرسمُ خطواتكَ المبعثرة... بدأت تشعر بدم يسيل على يدك اليمنى ليعلمك بوجود خدشٌ صغيرٌ منذ فترةٍ... عندما تدرك حجم الكارثة التي حلت بك وبالغرفة يصرع الألم أعصاباً ما في دماغك... وذلك الهرمون، الذي درسته قديماً في مادة الأحياء، والذي يدعى الأدرنالين، يتقافز بداخلك عالياً وبعشوائية كنافورة ميدان التحرير...

الفراشة الآن تطير بمحاذاة النافذة... لا يهم... تحاول الإطباق عليها دون أن تبالي بزجاج النافذة الذي قد يتهشم تحت قوة الضربات المتتالية... ثم ها أنت أخيراً تحاصرها وتقبض عليها

ثم «تفعصها» بقوة، وبدون تردد ترمي بجسدها المهترئ على الطاولة... وبسرعة مدهشة تهدأ ثورتك وتنطفئ نافورة هرمونك الغاضب.

***

يخيمُ سكونٌ مريح على الغرفة... تنظر إليها بأسى وعطف كبيرين... متألمٌ أنت لموت هذه المسكينة... وبرفق ترفعها فوق إحدى الأوراق وتفتح بحذر زجاج النافذة وتلقي بها خارجاً... تنظف الخدش الصغير وتعيد، على عجلٍ، ترتيب أدوات إبداعك الشعري على الطاولة: أقلامك وأوراقك التي تبعثرت، المصباح الكهربائي الذي سرقته من العمل، صورتك التي حمدت الله كثيراً أنها لم تنكسر... تُقرر أن تؤجل التفكير في الحبر الذي لطخ أثاث غرفتك... وما هي إلا ثوانٍ قليلة حتى تستعيد وتيرة تنفسك المنتظم وتعاود ما كنت تريد القيام به... ممسكاً بالقلم، تسأل نفسك سؤالاً يتكرر دائماً: ماذا عساك أن تكتب الآن أيها الشاعر...؟! ثم كعادتك تشرع بكتابة قصيدة جديدة، هزيلة المعنى... مكتظة الأوزان... قصيدةً أخرى لن يقرأها أحد سواك.

بريكستون، لندن - صيف 2005

***

شمس

الساعة الواحدة بعد الظهر... يتأهب الناس للغداء في مثل هذا الوقت، ومن ثم لبدء المقيل اليومي. الشمس تتعامد على رؤوس المارة. كانت ساحة الجامع قد خلت من حشود المصلين والباعة المتجولين الذين عادة ما تكتظ بهم بعد صلاة الظهر ولوقت قصير، قبل أن يتفرقوا تاركين الساحة ملأى بالأوساخ المختلفة. السكون يعود إلى الحارة تدريجياً... كنتُ منتظراً ظلاً يرتسم كل يوم، في مثل هذا الوقت، على رصيف منزلنا الذي يطل مباشرة على ساحة الجامع. أشاهد صاحبته

من نافذة «ألمنيوم» كثيراً ما ألعن عدم وضوح زجاجها المتسخ. أنتظرها بقلق، وأتوقع بين الحين والآخر أن يناديني أخي الصغير زاعقاً:

يا الله... غداااء!

كنت قد أدمنت هذه العادة منذ لاحظتُ وجودها لأول مرة في حارتنا... أظل منتظراً ظلها خلف الزجاج المتسخ، الذي عادة ما يرتسم على الرصيف قبيل الغداء بقليل. لا أعرف أين تسكن، لكنها تنعطف يميناً عند بداية الشارع المقابل. مازلت أجهل حتى اليوم لماذا لم أجرؤ يوماً على اللحاق بظلها وهو يختفي لأعرف أين تسكن!

هل شدني شعرها المنطلق بحرية، والذي يتدلى ذيله الجميل حتى منتصف ظهرها المستقيم...؟! لا أدري..!! كانت تشق صدر الحارة بوثوق، وبدون حجاب..!! نعم، في حارتنا المظلمة بشراشف نسائها السوداء..!! كنت أتأملها طويلاً، أمعن النظر بتقاسيم وجهها الوضاء وجسمها الرشيق الممشوق، فتنطبع صورتها في مخيلتي طويلاً وأنا أحاول أن أتلمس خطواتي بصعوبة في صفحات الكتب وملازم المراجعة تأهباً للامتحانات المرعبة.

أنظر في ما تبقى من مرآة الدولاب... وأتأمل – بفضول – البثور

التي بدأت تغطي وجهي. كان أقراني في المدرسة يتبادلون أفضل الطرق للتخلص منها، لكنني لم أكن آبه لها مطلقاً... ها أنا الآن أتفحصها، وأدرك حجم التشويه الذي تلحقه بوجهي. أصبحت أريده نظيفاً، جميلاً، لائقاً كي يعجبها يوماً ما... شَعري الجاف والمكتظ بدأ أيضاً يعرف طعم كريمات الشعر التي كان يسمع بها فقط... أعرف أنها تكبرني سناً، وربما حجماً أيضاً، لكن كل ذلك كان عادياً في علاقات الأحلام اللذيذة.

***

ها هي قد أتت! تلبس تنورة طويلة تشف عن قوامها الرشيق، وقميصاً أبيض بكُمٍّ قصير، مفتوح الصدر باحتشام عجيب... تحتضن ملفات جامعية على صدرها، وتسير بخط مستقيم لا يستطيع حتى «الأستاذ عبد الهادي»، مدرس الرياضيات، أن يرسم مثله على سبورة الفصل المشقوقة.

كنتُ أتعمد الخروج من المنزل في ذلك الوقت لشراء خبز الغداء من الفرن الواقع أسفل الحارة... كم كنت أهوى مشاهدة الفرّان وهو يقوم بحركاته الآلية، بإدخال العجين المدوّر وإخراجه أقراصاً منتفخة بهواء ساخن! لكنني لم أعد أهتم بذلك الآن. أفكر فيها، وأنا ألتقط الأقراص بحذر وأدخلها الكيس البلاستيكي الذي عادة ما يذوب من حرارة الخبز. يراودني أملٌ مخيف بعض الشيء، فقد

ألتقيها مصادفة ذات يوم! ماذا ينبغي عليّ فعله؟! لا أدري!! أفكر في ذلك أثناء ذهابي للفرن وفي طريق العودة.

* * *

كنتُ في طريق عودتي إلى المنزل... لم أرها منذ فترة طويلة... أحمل كيساً بلاستيكياً منتفخاً بحرارة أقراص الخبز الساخن... وفجأة لمحت شعرها من الخلف! حاولت اللحاق بها لأتمعن عن قرب في تفاصيل جسدها الطويل وتقاسيم وجهها الساحر... كان سكان الحارة ينظرون إليها بفضول متوقع، لكن خطواتها السريعة والواثقة كانت كفيلة بردع أي فكرة قد تطرأ لأحدهم بمضايقتها... يكتفون فقط بالنظر إليها من بعيد وهي تنعطف يميناً عند بداية الشارع المقابل... ربما كانوا قد ألفوا وجودها!

حاولتُ الركض لألحق بها، فانفرط كيس الخبز من يدي وتدحرجت بعض أقراصه تحت قدميها... التفتتْ إلى الوراء ورأتني... التقطتْ أقراص الخبز من الأرض وعادت إليّ مبتسمة... وبرقّة بالغة أدخلتْها الكيس... وربّتتْ على شعري كما تربّت معلمة على رأس تلميذ مجتهد!! ثم، ويا لدهشتي! غمزَتْ لي شبه ضاحكة ومضت مواصلة طريق عودتها.. يا له من خيال جميل قطعه صوت أخي الصغير وهو يناديني زاعقاً:

يا الله... غدااء!

لسنوات همتُ ولعاً بتلك اللحظات اللذيذة، أقلّب أحداثها، وأخترع تفاصيلَ جديدة ترسمها مخيلتي المراهقة ليلاً، قبيل النوم، لأعيش دقائق صارخة وحميمية، لكنها مشروعة في علاقات الأحلام اللذيذة!!

***

لم تعد تأتي! ولم يعد ظلها يشق صدر حارتنا أو يذرع رصيف منزلنا! انتظرته طويلاً لكن دون جدوى. بدأت أتردد على الشارع الذي اعتقدت أنها تسكن فيه... سألتُ عنها بحذر... سألت عنها بشجاعة... سألت عنها بجرأة... قيل لي إن اسمها «شمس»، وإنها ليست شامية كما كنت أعتقد، بل يمنية الأصل والفصل، وإنها لم تعد تسكن هناك. «لقد غادروا الحارة منذ فترة...!»، هكذا قيل لي... ومنذ ذلك اليوم لم تعد الشمس تسطع على حارتنا التي فقدت بهجتها وهجم عليها الظلام... حتى الآن!!!

ظهيرة يوم أحد طويل

لامبث، لندن – صيف 2005

***

اختفاء

اليوم تدحرجتْ كرةُ دمعٍ كبيرة على خدِّ طفلٍ ظل يرنو بحزن إلى سيارة الآيسكريم، التي دخلت الحارة منذ مدة، وأضافت إلى سيمفونية الضوضاء صوتاً مزعجاً آخر من موتور ثلاجتها، الذي يطلق الدخان بلا هوادة. كان في الخامسة من العمر... هكذا خمّنتُ وأنا أتأمل وجهه الباكي الذي كان يشتد حزناً كلما اقترب وقت رحيل السيارة. فجأة انفتح بابٌ هلامي في المسافة ما بين الطفل الواقف على الرصيف والسيارة، وهبت منه رياح كونية غريبة! أحسستُ بأن الله كان ينظر إلينا في تلك اللحظة. تحركتْ

سيارة الآيسكريم مغادرة الحارة، فأجهشَ بالبكاء! وبلا تردُّد، تحركتُ نحوه وأخذته إلى أقرب دكان، واشتريت له ما أراد، قبل أن أعود به إلى المكان نفسه الذي وجدته فيه أول مرة، ومضيت في طريقي وأنا ألتفت بين الحين والآخر إلى الوراء، مستمتعاً بابتسامته لي بعد أن توقف عن البكاء... لكنني، وبعد لحظات قليلة، أصبت برعب شديد وأنا أشاهد الطفل يتلاشى رويداً رويداً قبل أن يختفي تماماً!

***

ركضتُ بهلع نحو المنزل... أدركت أن ذلك الطفل هو أنا الذي كنته منذ أربعين عاماً، وأن عربة الآيسكريم هي ذاتها تلك التي بكيتُ بعد رحيلها كثيراً ولم أتوقف عن البكاء إلا بعد أن التقطني والدي من على الرصيف وأخذني إلى دكان قريب. لم تكن عادته أن يعود إلى المنزل في مثل ذلك الوقت... وكنتُ مُحرجاً من دموعي، أحاول مسحها خائفاً أن يراني وأنا أفعل ذلك... اشترى لي أشياء كثيرة، وضعها في كيس بلاستيكي وجعلني أمسكه... حينها أحسستُ بأن الله كان ينظر إلينا في تلك اللحظات من ذلك الأربعاء البعيد الذي كان هو نفسه يوم اختفائه الغامض منذ خمسة وثلاثين عاماً... اليوم الذي خلَّف في قلب أمي ثقوباً سوداء ستبتلع عما قريب الكون وما عليه.

صنعاء – صيف 2006

قلم أبي

استسلمتُ أخيراً لليأس، فلا أمل في أن أجده هذه المرة..!. هكذا أقنعت نفسي على الرغم من أنها لم تكن المرة الأولى التي أفقده فيها، فقد ضاع مني مراراً وكنت دائماً ما أجده ولو بعد مدة طويلة. أتذكر أنني في إحدى المرات أضعته ثم وجدته بعد أكثر من عام بين دفتي كتاب قديم. ومرة أضعته بينما كنت لا أزال أسكن في شقتي القديمة، ثم وجدته، دون أي تفسير معقول، مرمياً فوق سجادة الصالة في المنزل الجديد الذي أكتب لكم هذا من إحدى غرفه المظلمة. لا أعرف عدد المرات التي أضعته فيها، لكنها كثيرة، وكنت

خلالها جميعاً واثقاً من العثور عليه في النهاية. لكنني هذه المرة أدركت أنه ضاع مني إلى الأبد، وأنني لن أجده مرة أخرى؛ ففي نفس اللحظة التي تحسست فيها الجيب الداخلي لمعطفي ولم تجد أصابعي القلم فيه استقر غرابٌ أسود سمين فوق غصن ضعيف لشجرة التين الصغيرة في فناء المنزل، وأطلق نعيقاً مزعجاً اقشعر له جسدي. لحظتها تساءلت: كم مرة حط فيها غرابٌ أسود سمين على شجرة التين الصغيرة! بل كم مرة رأيت فيها غراباً أسود بمثل هذا الحجم وبهذا القرب! وفي الحال تولد لديّ شعورٌ واضحٌ وقويّ بأن القلم قد ضاع مني وانتهى أمره... وبما أنها المرة الأولى التي أفقد فيها ثقتي بالعثور عليه، والتي يتملكني فيها مثل هذا الشعور، فقد تعززت لديّ الثقة المطلقة بأنني لن أجده أبداً.

وقبل أن تعتقدوا أنني أمهد لنتيجة متوقعة ومألوفة، أود أن أقول لكم إنني لم أعثر على ذلك القلم، تماماً مثل أشياء كثيرة أضعناها ولم نعثر عليها مطلقاً، لكن أي أهمية يحملها هذا القلم ليستحق أن أكتب لكم عنه؟ حسناً..! إليكم الحكاية:

كان أبي قد أهداني هذا القلم منذ أكثر من خمسة وثلاثين عاماً. لا أتذكر الآن بأي مناسبة، لكنني أتذكر جيداً أن هذا القلم كان القلم الوحيد الذي أهداني إياه والدي، بل كان القلم الوحيد الذي تلقيته كهدية طوال حياتي... فكما أتذكر لم يقم أي شخص بإهدائي قلماً... حتى في ذروة شهرتي ككاتب مرموق كثيراً ما يطل على قرائه في

مقابلات صحفية وبرامج تلفزيونية عديدة لم يتبادر إلى ذهن أي صديق أو قارئ، أو حتى أحد أصحاب دور النشر التي أتعامل معها، أن يهديني قلماً. كم كنت، ولا أزال، أتشوق للحصول على قلم كهدية غير متوقعة ومن شخص لم يعرف رغبتي الجامحة في الحصول على مثل هكذا هدية...! تماماً كما فعل والدي... وقد ألزمتني هذه الرغبة بالتالي بعدم البوح بها مخافة ألا تتحقق... مخافة أن يقوم الناس بإهدائي أقلاماً تلبية لرغبتي، وبالتالي عدم تحقيقها.

كان القلم ذا هيكلٍ معدني أنيق فضّي اللون، نحيل ويحمل إشارة ماركة أقلام عالمية معروفة عادةً ما كنت أراها وأنا صغير في إعلانات الجرائد الأجنبية التي كانت ترسل إلى والدي من معارفه في الخارج. وكان أبي – الذي عُرف كمحامٍ ناجح – قد أراني كيف أملؤه حبراً، واشترى لي لاحقاً محبرة خاصة، بعد أن لاحظ ازدياد عدد نقاط الحبر على موكيت غرفته الخاصة التي كنت أختلس لحظة غيابه وأدخلها لأملأ القلم من إحدى محابره رغم تحذيرات أمي المتكررة.

شغفت بهذا القلم وازداد ارتباطي به يوماً بعد يوم، فمنذ أن بدأت استخدامه لاحظت – كما لاحظ الجميع – أن خطي بدأ يتحسن رويداً رويداً، وبدأت الدوائر التي كانت تهيمن عليه تقل يوماً بعد يوم، بل إن أساتذتي بدأوا يلاحظون تحسناً مطرداً في مستواي الدراسي وفي كل المواد، خاصة بعد أن صار القلم رفيقي الدائم في الامتحانات، تلك التي لم تعد تصيبني بالرعب والتي

أصبحت أجتازها بكل تفوق. وهكذا ذاع صيت خطي الجميل، وكان والدي يطلب مني في بعض الأحيان أن أقوم بكتابة رسائله المهمة، وكنت أقوم بذلك بكل سرور وافتخار. لكن حكايتي مع القلم بدأت تأخذ منحىً أكثر أهمية عندما لاحظت أن أصابعي تفقد مهارتها عندما تمسك بقلم آخر، وما تلبث أن تعود إلى رسم دوائر بدلاً من الحروف المنمقة التي كان يرسمها هذا القلم بكل براعة على صدر الصفحات. ليس هذا فحسب، بل إن تركيزي كان يقلّ وذاكرتي تضعف، فقد أكسبني هذا القلم، إضافة إلى الخط الجميل، نشاطاً فكرياً عالياً وقدرات لغوية متقدمة لاحظت نموها يوماً بعد يوم. وما زلت أتذكر أن أول مقالة نشرت لي كنت قد كتبتها بذلك القلم، ومنذ تلك اللحظة أصبح القلم هو مصدر أفكاري وملهمي الوحيد لكتابة المزيد من المقالات التي بدأت أنشرها تباعاً في عدد من الصحف والمجلات المحلية والخارجية أيضاً. ولم تمض سوى سنوات قليلة حتى احتفلت بصدور أولى رواياتي التي لاقت صدىً طيباً في أوساط النقاد الذين بدأوا يكتبون عني كواحدٍ «من أهم الكتّاب الشباب في بلادنا».

وهكذا أصبح لهذا القلم أهمية كبرى في حياتي، وكنت دائماً ما أحمله معي أينما كنت أو توجهت، كأنه حرز خاطته أمٌّ بإحكام على ثياب ابنها الوحيد. عندما توفي والدي كنت حريصاً على أن يكون القلم بجيب معطفي وأنا أتقدم الجنازة، فقد كان لذلك أكبر الأثر

والمواساة. وفي خضم انشغالي بوتيرة «النجاحات الأدبية» كان القلق يكبر بداخلي من فقداني لهذا القلم، ولهذا استعملت كل الطرق للاحتفاظ به. وكم مرة حاولت ترويض أقلام أخرى مشابهة له لكن دون جدوى، فما إن أتركه حتى أفقد ثقتيّ بنفسي وتتغير سلباً مجريات حياتي، وبوتيرة سريعة. حاولت أيضاً، وتحت إلحاح أحد أصدقائي من الناشرين، أن أستخدم الكمبيوتر مباشرة في الكتابة، لكنني سرعان ما توقفت عن ذلك أيضاً بعد أن شاهدت النتائج الكارثية التي أحرزتها. وكأن القلم كان يرفض أن يكتب أي شيء ركيك، غير مفيد أو غير مدهش، وما إن أمسك به حتى تنساب الأفكار والكلمات بعذوبة شديدة... حتى إنني كنت عادة ما أتساءل بخوف داخلي مكتوم: من منا كان يكتب بالآخر؟

عندما ضاع مني القلم أول مرة شعرت بالهزيمة وتوقفت عن الكتابة متحججاً للأصدقاء أنني تعمدت أن أقضي فترة «نقاهة كتابية» أكمل بها مشاريع قرائية مهمة، ويبدو أن هذه الكذبة وجدت طريقها للتصديق والإعجاب أيضاً. وخلال تلك الفترة شعرت بضياع أرعبني، وفقدت تركيزي تماماً، حتى الرغبة في القراءة فقدتها وشعرت بأنني بالفعل أصبت ببلادة أزعجتني كثيراً. طبعاً كان الحال أفضل في المرات اللاحقة التي ضاع فيها القلم، إذ حاولت عدم الاستسلام لشعور الضياع واستغلال الفراغ لترميم ما أفسده نمط حياتي المنشغلة دائماً، فكنت أقوم

بزيارات لأصدقاء لم أرهم منذ فترة طويلة، وبأعمال منزلية روتينية أهملتها، وبدأت أقضي وقتاً أطول مع زوجتي وأولادي وأفراد أسرتي الذين تذمروا مرات ومرات من عدم رؤيتي كما هو الحال مع عائلات وأصدقاء المشاهير. لكنني رغم كل هذا كنت قلقاً ومهموماً أنتظر بفارغ الصبر، وبسرّية مطلقة وأمل كبير، عودة القلم إلى أصابعي.

وها أنا أقص عليكم هذا بعد خمس سنوات من فقداني للقلم... خمس سنوات من اللحظة التي رأيت فيها ذلك الغراب الأسود السمين الذي حطّ على شجرة التين في فناء المنزل لأول مرة... وخلال هذه السنوات - كما ستتوقعون - لم أكتب شيئاً مهماً، بل لم أكتب أي شيء ولم أقم بأي عملٍ من أي نوع، فقد عاندتني الكلمات وتبخرت مني الأفكار وتملّكني الإحباط. أقضي معظم أوقاتي منعزلاً في غرفتي، أمضغ أوراق «القات» وحيداً ظهيرة كل يوم بعد أن تناقص عدد الزوار والأصدقاء الذين كان يغص بهم المقيل من قبل... أمضغ وحدتي وأسفي على نفسي وعليهم... حتى زوجتي فقدتْ اهتمامها بي رويداً رويداً وانشغلت بالأولاد... والأولاد انشغلوا بمدارسهم... وأنا لا يشغلني شيء سوى انتظار «معجزة إلهية» أخرى للعثور عليه، ومراقبة الغربان السوداء التي امتلأ بها فناء المنزل، وبنعيقها المزعج الذي يقض سكون الجميع، والذي لا تزال جدران الحارة تردد صداه حتى اليوم.

واشنطن، شتاء 2008م

الأريكة

إلى توفيق القباطي

عندما أمرُّ من أمامهِ وهو جالسٌ على تلك الأريكة - التي وضَعَتها في ذلك المكان يدٌ لا تعرفُ لماذا خُلِقتْ - أشعرُ وكأن مغناطيسيةَ الرخام تجذبني نحو كوةٍ مكتظةٍ بسبائكِ سكينةٍ لها لونُ الأسرارِ والعبقرية. في تلك اللحظة تبدو الكائناتُ التي بجواره هوامٌ تسبحُ في فضاءاتٍ متكسرة، ما تلبث أن تمتصها فوهةُ منفضةِ سجائر بجانب الأريكة. أقول له:

هذه الهوامُ لا تعرفكَ، ولا تعرفُ أن الأريكة

إنما وضعت في ذلك المكان من أجلك، كي تنفثَ دخانَ سجائركَ مِن عليها كل صباح.

لا يسمعني كعادته، أو هكذا يخيل إليّ... ثم ما يلبث أن يبدأ رحلته اليومية المبتلة بالأسئلة: «مَنْ منهما حرٌّ طليقٌ يا ترى؟» يحدّث نفسه وهو يفكر بمسجونٍ عبقري وسجّانٍ بليد! يقول بصمت: «الأولُ مأسورٌ للمطلق، والآخر منطلقٌ في القيد».

***

لا يزال مستغرقاً في التفكير على الرغم من تلك الابتسامة الودودة التي ارتسمت على وجهه المتعب... وها أنا فجأة أستيقظُ من غفوتي القصيرة على ضجيج الكائنات التي تمرُّ بيني وبينه، دون أن ترى الأريكة التي وضعتها هناك يدٌ لا تعرف لماذا خُلِقتْ!... ودون أن تراني، أو ترى العواصف التي يُحدثها رحيلك في شوارع الصمت... تمر الكائنات من أمامه دون أن تراه نوراً خافتاً لبريق معدنٍ من ذهبٍ خالص.

مودِعاً أغادره نحو كهفٍ تملؤه عقارب شاخت، ولا تزال صورته منطبعةً في ذهني: متكئاً على الأريكة... وبنكهة الزنجبيل يرشفُ فنجان قهوته الصباحية.

صنعاء – سبتمبر 2009

لماذا زرعنا الحديقة...؟

إلى عبد الكريم الرازحي

قبل ظهيرة ذلك اليوم غير البعيد، كانت قدماي قد توقفتا فجأة عن المشي للحظاتٍ عندما لمحتُ ظِلهُ مرسوماً على الممرِّ المبلَّط للحديقة التي تتوسط بناياتٍ لها وقعُ متاهاتٍ وبرودةُ كهوفٍ مظلمة. واقفاً كان عند أحد أركان الممر، يرنو نحو أزهارٍ أينعت في أحواضها الترابية لأول مرة منذ زمنٍ بعيد.

كان مستغرقاً في التفكير دون شك؛ إذ إنه لم يأبه للتحية التي أرسلتها له بإيماءة من يدي. حينها لم أتذكر من أين جئت، ولا إلى أين كنتُ

ذاهباً، أو حتى لماذا توقفتُ فجأة عن المشي! نعم... لم أتذكر أي شيء... وكعجلات قطارٍ صحا فجأة من سباتٍ عميق تحركتْ قدماي مرة أخرى، لكن باتجاهه هذه المرة... وقبل أن تتوقف آخر خطواتي المتسارعة بالقرب من ظلٍّ ارتسم على الممر، نظر إليّ وابتسم... أراد أن يقول شيئاً ما، لكنه لم يقل، ثم ما لبث أن غادرني مبتعداً دون سابق إنذار.

***

هانئةٌ بموتها كانت الحديقة... زهورها نائمةٌ في تراب الذكريات... لماذا أفسدوا عليها سكونها الذي أنست إليه وزرعوا كل هذه الأزهار؟

لم يسمعه أحد.

***

كان إطار نظارته قد تهالك، لكن مشيته ظلت راقصة على عهدها دائماً... قدماه ترسمان على الممر المبلّط خطوطَ ظلٍّ لا يراها إلا هو... منشغلاً بقصيدة جديدة لا يعرف من أي كوةٍ في جدار الحلم هبطت! بالأمس كتب سطورها الأولى، وأهداها إلى مجرم حربٍ في الكونغو كان يوزع على العالم بطاقات تهنئة بالعام الجديد!

«عندما استيقظتُ من نومي صدفةً هذا الصباح لم أجدها... بحثت عنها كثيراً لكن دون جدوى»، حدَّثَ صديقاً لم يكن بجواره...

«لماذا تضيع القصائد قبل أن يكتمل حزنها؟»، تنهّد... ثم وقف عند أحد أركان الممر ينظر بإمعانٍ وبدهشة لأزهار أينعت في أحواضها الترابية لأول مرة منذ زمن بعيد... تدحرج سؤالٌ حائرٌ من جبهته وسقط تحت قدميه: «هل يزرع الإنسان أزهاره خلسةً كي يحصد موتها عطشاً؟».

كان لا يزال مستغرقاً في التفكير... شخصٌ ما كان يومئ له من طرف الحديقة، ثم ما لبث أن اقترب منه... نظر إليه وابتسم... أراد أن يقول له شيئاً لكنه لم يقل... قدماه، دون سابق إنذار، سحبتاه نحو البعيد...!

***

كأرواحنا هي هذه الأزهار... عطشى... فمن سيسقيها؟!

لم يسمعه أحد...

***

كانت زخاتُ مطر ربيعي قد أعلنت عن حضور مفاجئ... والكائناتُ التي عادةً ما تهيم حوله غادرت الممر المبلّط راكضةً

نحو بناياتٍ لها وقع متاهاتٍ وبرودة كهوفٍ مظلمة... «هل يؤذيها المطر إلى هذه الدرجة؟»، فكّر ملياً، يحاولُ أن يجمع شتات صورٍ لأصدقاء لم يكونوا بجواره، بينما كانت قدماه تسيران ببطءٍ وبإيقاعٍ راقص على الممر المبتل، وزجاج نظارته التي تهالك إطارها يعكسُ طيفَ أزهارٍ ممددة على سررٍ تحتضر... تساءل بقلقٍ واضح وهو ينظر عالياً:

حَتّامَ حتام ينهمر المطر، والغيومُ «تسحُّ ما تسحّ من دموعها الثقال»؟

كان وحيداً في الحديقة، ولذلك لم يسمعه أحد.

***

ها هو صباحٌ خريفيٌ آخر يستيقظُ فيه صدفةً، ومن على بعد أكثر من تسعين مليون ميل كانت الشمس لا تزال ترسل أشعتها الدافئة، عبر نسيج الزمن الكوني، ليموت بعضها على تراب الحديقة البارد. كانت قدماه لا تزالان ترسمان على الممر المبلّط خطوطاً لا يراها إلا هو. حلّق عالياً ثم نظر ببهجة إلى سطورِ قصيدة ضائعة... كانت أشجار الحديقة هياكل شبحية لوجوهٍ متعبة.... والأزهار التي أينعت في غفلة من التنين صارت بقايا فتاتٍ متعفن ينتشر بشكل هندسي غريب على أحواضها الترابية الجافة... الكائناتُ التي عادةً ما تهيم حوله سئمتْ نفسها، وصارت دمامل يبتلع

بعضها بعضاً... نظر حوله مرة أخرى... «يعود كل شيء إلى أصله إذن!»... ابتسم ساخراً، ثم صاح بأعلى صوته:

الخراب جليٌّ والحلمُ تائه... وها هي الحديقةُ من جديد هانئةٌ بموتها!

هذه المرة أيضاً، لم يسمعه أحد..!

كوبنهاجن – ديسمبر 2010م

* * *

شجرة منزلنا الطويلة

لم يكن منزلي كبيراً، بل كان متواضعاً، متهالكاً إلى حدّ ما، يقبع في حارة تتوسط العاصمة، تراكمت بيوتها بشكل عشوائي عبر السنوات الثلاثين الماضية. لكن كان هناك شيء يميز هذا المنزل عن غيره في الحارة، بل وعن أي بيت من بيوت العاصمة، فقد كان في حديقته الصغيرة بعض الزهور التي جهدتْ في البقاء على قيد الحياة، وشجرة وحيدة تأكد لي مؤخراً، بكثير من الدهشة والإعجاب، أنها كانت أطول شجرة في عاصمة البلاد.

***

لطالما كنت أعرف أن شجرة منزلنا عالية جداً، أستطيع أن أميزها من مدخل الحارة أو حتى من مسافات بعيدة. وكم قد خضت من معارك حامية مع جيراني دفاعاً عن وجودها! كنت في بعض الأحيان أهادنهم بالوعد أن أقطعها في أقرب وقت حتى أمتص غضبهم الجماعي، وفي أحيان أخرى كنتُ أقوم بأعمال تهدئ من نقمتهم عليّ؛ كأن أساعدهم في تنظيف أسطح منازلهم من أوراقها وفروعها اليابسة التي كانوا يدعون أنها تسد منافذ الميازيب، خاصة في مواسم المطر القليلة. وفي حالات أخرى كنتُ مضطراً إلى أن أدفع أجرة العامل الذي يستأجره جاري لقطع جذورها الممتدة إلى فناء منزله... جاري رجلٌ طيب، لكنه كان قد جعل من الشجرة عدوته اللدود، فهو لا يكلّ ولا يملّ من الشكوى والتذمر مما تسببه شجرتي من أضرار على أساسات منزله، على الرغم من بعدها عن جدران السور المرتفع بيني وبينه. لم أكن أدري من أين جاءت هذه العداوة التي يظهرها الجميع للشجرة، رغم أنها كانت الوحيدة التي يمكن أن تراها في حارتنا المقفرة! لكأن خضرتها تصيبهم بنوع من الهستيريا التي لا أفهمها، أو ربما كانت هذه هي عادة سكان مدينتنا الأسمنتية، الذين لا يأبهون للأشجار التي تتناقص عددها في الآونة الأخيرة بشكل مخيف من على وجه المدينة المثقلة بالغبار. سألت نفسي يوماً: كيف كان سيغدو الحال لو أنها كانت من تلك الأشجار التي تحدث إضراراً واضحة؟ فقد كانت شجرتي

أثلة، والجميع يعرفون، بمن فيهم جيراني، أنها تغرس جذورها عمودياً في باطن الأرض ولا ضرر منها... لكن أياً من جيراني لم يكن ليتنازل عن غريزته العنيدة لقطع الأشجار، أياً كان نوعها.

***

كان صباحاً رائعاً من أيام إبريل الممطرة عندما فتحت باب المنزل خارجاً إلى العمل ليفاجئني أحد جيراني بتحية صباحية يشكو فيها من انسداد ميازيب بيته، مشيراً بأصابع الاتهام إلى قمة الشجرة التي بدت لي ذلك الصباح عالية جداً. حينها تبادرت إلى ذهني فكرة أنعشت آمالي؛ كانت شجرتي أطول شجرة رأيتها ربما في حياتي. حينها أغلقت باب المنزل بعجل متجاهلاً اقتراحات جاري الذي لم يتوقف، تحت زخات المطر، عن الحديث الذي كنت قد حفظته عن ظهر قلب، وقد عزمت على أمرٍ لمتُ نفسي كثيراً لعدم التفكير فيه من قبل: أن أقيس ارتفاع الشجرة. وما هي إلا أيام حتى تعرفت، عن طريق صديق في العمل، على مهندس مدني استطاع بعد عدة محاولات أن يكتب رقماً نهائياً لارتفاعها، بعد أن شرح لي كيف يمكنني أن أقيس ارتفاع الأشجار دون أن أتعرض لخطر تسلقها.

***

بعد ثلاثة أسابيع فقط، قضيتها في التجوال في شوارع

المدينة وأحيائها، تمكنت من رصد جميع الأشجار العالية، وقد دهشت كم كانت قليلة، وكيف أن مدينتنا أصبحت صلعاء متهالكة...! وبعد أن قمت بقياس بعض الأشجار التي بدت لي الأكثر ارتفاعاً، حدث ما كنت أخافه، إذ تأكد لي أن شجرتي لم تكن أطول شجرة في المدينة. لم أكن مستاءً جداً، ذلك أنني بعد أن قارنت بدقة القياسات المختلفة التي دوّنتها في دفتر خاص، اكتشفت أن الأثلة التي نبتت منذ زمن طويل في حديقة منزلي المتواضع تأتي في المرتبة الثانية، بفارق مترين ونصف عن شجرة الكافور العملاقة التي كانت تغطي بظلالها حديقة السفارة الروسية الكائنة في حي «بير العزب».

***

ما زلت أتذكر كيف استطعت، بعد عناء كبير، أن أقنع القنصل الروسي بالسماح لي، ولصديق كان يساعدني، بقياس ارتفاع الأشجار العالية في فناء السفارة. لم يكن مقتنعاً في البداية، وكان الشك قد راوده في طلبي الغريب خاصة أنني لم أكن مُرسلاً من أي جهة رسمية، لهذا لم يتردد في الاعتذار بشكل لا يخلو من صرامة وجدتها غير لائقة. في اليوم الثاني كان مزاج القنصل منشرحاً، وقد لانت طباعة، وهو يستقبلني مع صديقي في مكتبه، وقد أعجبه إصرارنا، حسب ما تخيلت، وأنا أشرح له كيف يمكن أن يقاس ارتفاع الأشجار بسرعة ودون أن نضطر إلى تسلق أيٍّ منها. عندما

أكملنا قياس ارتفاع شجرة الكافور تلك أصبت بالإحباط، فقد كانت شجرتي حتى ذلك اليوم هي الأطول من بين جميع الأشجار التي قمت بقياس أطوالها، لكنها اليوم لم تعد كذلك، وتبخرت بعض الآمال التي كانت قد ترعرعت خلال الأيام الماضية. قلت لهم بشيء من الحزن إنهم يملكون أطول شجرة في المدينة. لم تكن المعلومة ذات أهمية بالنسبة لهم، ومع ذلك شكرنا القنصل بدبلوماسية تعوّد عليها محاولاً أن يخفي ما ارتسم على وجهه من علامات السخرية، ولم ينس أن يهدينا بعض التقاويم الروسية وكتيبات سياحية قديمة.

***

مع مرور الأيام ازداد تعلقي بالشجرة، حتى إنني أصبحت مهووساً بها كما قالت لي زوجتي في أحد الأيام، خاصة عندما شاهدتني وأنا أوصي أولادي الصغار بهذه الشجرة مخافة أن أموت فتقطع... لم يرق لها هذا المشهد مخافة أن أصيبهم بقلقٍ لا داعي له، والذي ربما كان قد أصابها وقد وجدتني أهمل بعضّ شؤوني منصرفاً لقياس ارتفاع الأشجار التي كنت أبحث عنها بدأب في ضواحي العاصمة.

بعد ذلك بعام تقريباً، مرت عليّ أيامه برتابة كئيبة، جاء صديقي ليخبرني، وقد تملكته حماسة شديدة، أن شجرة الكافور

في فناء السفارة الروسية كانت قد قطعت. أخبرني كيف أنه استنتج ذلك عن طريق مشاهدته لخريطة جوية استخرجها من الإنترنت للحي الذي تقع فيه السفارة الروسية. عندما أعطاني صورة الخريطة تيقنت أنه كان محقاً. كان مسبح ضخم قد أنشئ حديثاً متوسطاً الركن الأيمن من الفناء الداخلي للسفارة، حيث كانت مجموعة الأشجار العملاقة، ومنها شجرة الكافور تلك، تمد ظلالها عليه. حينها أيقنت أن شجرتي قد أصبحت هي أطول شجرة في العاصمة، فصرخت بفرحة عظيمة، وتوقد في داخلي أمل قديم كان قد ذوى في رتابة الأيام الكئيبة.

***

في صباح اليوم التالي، توجهت إلى أمانة العاصمة، حاملاً بعض الأوراق التي اعتقدت أنها ستفيدني في ما كنت قد عقدت العزم عليه منذ مدة طويلة: تسجيل الشجرة رسمياً كأطول شجرة في المدينة. «ستأتي الصحافة حتماً عندما يصلها الخبر، وسيلتقطون الصور... وسيجرون معي مقابلة صحفية دون شك...!»، حدثت نفسي وقد بدأت الآمال تداعبني. «ربما تصبح مزاراً سياحياً يوماً ما...!»، هكذا ظلت الأحلام تطير بي بعيداً حتى وصلت إلى مقر أمانة العاصمة الرئيسي، الذي يحتل مبنى تاريخياً في قلب ميدان التحرير، بطراز معمار رائع، وفناء خلفي واسع أصلع تماماً لم تنبت فيه شجرة واحدة. شعرت بشيء من خيبة الأمل وقلت في نفسي:

«وهل سيهتمون بشجرتي إذا كانوا لا يهتمون بتشجير حديقة المبنى؟». لكنني قررت أن أطرد هذه الأفكار من رأسي ودلفت بسرعة إلى داخل المبنى. كان الواقفون أمام البوابة قد تكرموا بإرشادي إلى الموظف المختص.

صباح الخير!!

نظر إليّ موظفٌ في مقتبل العمر، جالساً على كرسي خلف مكتب حديدي بدا لي وكأن صروف دهر طويل قد مرت به... لم يرد التحية ونظر مرة أخرى إلى الجريدة الرسمية التي بين يديه...

عفواً يا أخ...!

نظر إليّ من جديد:

أيوه...!

شرحت له باختصار ماذا أريد... لم يفهم... عدت وكررت بتفصيل أكثر...

معك شجرة طويلة تريد تسجيلها في سجلات الأمانة؟

قال ذلك وقد بانت على وجهه علامات دهشة لم تكتمل.

أريد تسجيلها كأطول شجرة في العاصمة...

قلت له موضحاً، ثم أخرجت من حقيبتي بعض الأوراق وصورة للشجرة، وشرحت له من البداية كل شيء عارضاً عليه القياسات التي دوّنتها. كان قد أخذ الصورة بين يديه ممعناً النظر إليها وقد أحسست بأنه لم يكن يسمعني بانتباه... بعد لحظات من الصمت نظر إليّ من جديد قائلاً:

وما هو المطلوب بالضبط...؟!

أن تقوم الأمانة بتسجيل الشجرة رسمياً كونها أطول شجرة في العاصمة... !

أجبته بنبرة صوت مرتفعة قليلاً هذه المرة... ثم أضفت محاولاً جلب اهتمامه:

يمكنكم التأكد من صحة القياسات إذا أحببتم.

قام الموظف من كرسيه ثم ضرب كفاً بكف... نظر إليّ نظرة لم أفهمها قبل أن يلتقط الجريدة من على المكتب مغادراً الغرفة دون أن يقول لي شيئاً... «كان معتوهاً دون شك...!»، قلت في نفسي، وقد أدركت أنه ربما لم يكن الموظف المختص بمثل هذه القضايا... «لكن كان بإمكانه أن يرشدني إلى المكان الصحيح بدلاً من تجاهلي بهذه الطريقة الغبية!»، حدثت نفسي وأنا أخرج من الغرفة أبحث عن شخص يمكنه مساعدتي، دون أن أعرف أنني

سأمنى بهزيمة كبيرة ذلك اليوم الكارثي، وأن ذلك الموظف لم يكن معتوهاً بما فيه الكفاية مقارنة بزملائه الآخرين. أدركت تماماً ألا وجود لأي أمل بتسجيل الشجرة رسمياً، ذلك أن تسجيل قياسات من هذا النوع لم يكن جزءاً من اهتمام أي هيئة رسمية في البلاد... هذا إذا تجاهلنا سخرية الجميع حول اهتمامي بمثل هذا الأمر التافه – حسب قول الكثيرين.

***

ليلة ذلك اليوم كنت مكتئباً إلى درجة أصابتني بحمى شديدة، ونمت متململاً وأنا أحلم بأطول شجرة في العالم، وكيف تسنى لمجموعة هواة أن يخترقوا إحدى غابات كاليفورنيا ليصلوا إليها... كانت «سيكويا» بارتفاع يصل إلى 112 متراً. كانت صورة تلك الشجرة، التي كنت قد وجدتها في الإنترنت، لا تبارح مخيلتي المريضة. كانت زوجتي قلقة على صحتي، وحاولت صباح اليوم التالي منعي من الخروج، إلا أنني كنت قد صممتُ على أن أعرض قضيتي للصحافة، فلا بد أنها ستهتم بهذا الأمر، حتى وإن نشر الخبر في إحدى الملحقات السياحية الهزيلة التي تصدر أسبوعياً.

كنت أرتعش من الحمى وأنا أعرض لمدير تحرير الصحيفة القياسات التي قمت بها. لم يكن يصغي لحديثي المضطرب باهتمام إلا أنه كان يمعن بالصورة التي أمسكها في يده وقد

أظهر اهتماماً واضحاً بها، بينما كانت أصابع يده الأخرى تحكم قبضتها على سيجارته التي أصابني دخانها بغثيان شديد. بعد فترة صمت أعاد لي الصورة وقد ابتسم ابتسامة بلهاء وهو ينظر إليَّ من خلال نظارته الطبية... لم يقل شيئاً، بل حكَّ كرشه الكبير كثيراً قبل أن يلتفت إلى موظف كان قد دخل الغرفة بسرعة، ثم هتف به صارخاً:

يا محمود....! انتظر.. أريد سلفة... الأمر ضروري جداً!

كان هذا الـ«محمود» قد غادر الغرفة دون أن يعيره أي اهتمام، وما إن همَّ مدير التحرير باللحاق به حتى قفزت من مقعدي لأمسك بياقة قميصه وأشده نحوي بعنف. كانت فورة غضبي قد وصلت إلى حدودها القصوى وكنت حينها مستعداً لارتكاب أكبر الحماقات التي تخطر في بالي... كانت نظارته الطبية قد سقطت على الأرض، فقمت وأنا ما أزال ممسكاً بياقة قميصه بسحقها بقدمي المرتعشة... عندها فاجأني بلكمة قوية في وجهي ليبدأ شجار عنيف بالأيدي لم أعرف كيف انتهى... كل ما أعرفه هو أن زوجتي كانت توقظني وقد ارتسم الخوف على وجهها... استيقظتُ من حلمي مذعوراً... كنتُ في غرفة نومي، وكنتُ مبتلاً بالعرق... بعد لحظات استعدت وعيي وأدركت أنني كنت أحلم... طمأنتُ زوجتي وطلبتُ منها بعض الماء... هرولتْ خارجة وهي تقرأ المعوذات، بينما جلستُ على سريري وأنا أفكر بصمت... لقد كان كل شيء

يبدو حقيقياً... شعرتُ بأن الحمى كانت قد انقشعت أخيراً.

***

بعدها بساعات جاءني أحد أبنائي ليخبرني أن جارنا يريد رؤيتي... لقد جاء ليطمئن على صحتي بعد أن سمع بمرضي... لم يمكث طويلاً... شكرته على زيارته، وخرجت معه لأودعه، وفكري لا يزال منشغلاً بذلك الحلم الذي ربما كان أطول حلم مرَّ بي في حياتي، والذي عشت كل تفاصيله بوضوح عجيب. مررنا بحديقة منزلي وأنا أنظر إلى تلك الزهور التي جهدتْ في البقاء على قيد الحياة، وبجانبها الأثلة الصغيرة والوحيدة التي زرعتها قبل فترة قصيرة... ودعتُ جاري، لكنه قبل أن يخرج، أشار بإصبعه نحو الأثلة، وقال لي:

بالمناسبة... لقد قالوا لي إنك زرعتَ أثلة في فناء المنزل... لكنني لم أصدق...

بلى... منذ أسبوعين...

حينها نظر إليّ بعتاب شديد قبل أن يقول بجدية مصطنعة:

أرجو منك أن تقطعها... فسوف تؤثر كثيراً في أساسات بيتك..!

ثم أضاف بحرج ملحوظ:

وبيتي أيضاً... لا يمكن أن ترضى لي بالضرر... أنا متأكد من ذلك...

ابتسمت له، ولزمتُ الصمت لفترة قصيرة قبل أن تتطور ابتسامتي إلى ما يشبه الضحك، قائلاً له:

سأفكر في الموضوع... إن شاء الله خير...

ودعته مرة أخرى، وأقفلت الباب وراءه عائداً إلى المنزل وقد أيقنت أن سنوات طويلة من العراك تنتظرني...

صنعاء - يناير 2012

* * *

دم الأخوين

ها قد تسنى لي أن أقابل معظم الكائنات التي كان معلمنا الرمادي يحكي لنا عنها قبل أيام من السماح لنا بالطيران منفصلين عن القطيع. لَكَم كانت حزمة المعلومات التي نسخها من رأسه الكبير ولقح بها رؤوسنا الصغيرة مذهلة! ما زلت أتذكر الخدر اللذيذ الذي أصابني لأيام تحت تأثير تلك الحزمة، وأنا أعيش بزخم هائل عالماً افتراضياً

---

* تُعرف شجرة «دم التنين» باسم «دم الأخوين»، في إشارة إلى الأسطورة التي تقول إن الشجرة نبتت بعد أن سالت الدماء بين الأخوين: قابيل، وهابيل. اليمنيون يفخرون كثيراً بهذه الشجرة، حتى إنهم جعلوها رمزاً وطنياً معاصراً، ويقال إنهم عادة ما يتقاتلون فيما بينهم لكي ينبت المزيد منها.

مملوءاً بكل ما اكتظت به حياة المعلم من صور وأحداث وروائح وذوائق مختلفة. ولَكَم أنا متشوق لأنْ أنسخ حزمة معلوماتي للأجيال القادمة يوماً ما! لكنني أود أن تكون أكثر إمتاعاً وفائدةً من تلك التي حصلتُ عليها من معلمي الرمادي... هل هذا ممكن يا ترى؟! أم أنه طموح مبالغ به؟! «لا يمكن لأي جيل من أجيال الذباب القادمة أن ينافس عظمة أسلافنا؛ إن جيناتنا تضعف كل يوم، وفي طريقها للانقراض». هذا ما كان يقوله المعلم الرمادي دائماً.

كنتُ أفكر في هذا الأمر في صباح يوم مشمس جرى لي فيه أمر يستحق أن يروى. كنتُ أحلِّق في الفضاء دون أن أعرف إلى أين، أحاول أن أسابق ظلي العنيد في الممر الضيق بين بيوت القرية. كانت سحلية برصية قد توارت عن الأنظار بعد أن حشرت جسدها الملون في فتحة صغيرة بين صخرتين مرميتين تحت جدار مهمل. لا بد أنها كانت قد شعرت بوقع أقدام بشري بدأ ظله يظهر في طرف الممر زاحفاً بسرعة ومصطدماً بلا اكتراث بظلي الذي مات واختفى لوهلات... طرت بمحاذاته، واقتربت من رقبته التي جذبتني رائحة عرقها الممزوج بأوساخ غير مرئية. كان يرتدي دروعاً قماشية ذات ألوان جافة، غاضباً، يغذّ السير نحو ساحة القرية وقد امتلأت أنفاسه بروائح نوايا سيئة ووقائع جسيمة محتملة استطاعت بعض أليافي العصبية التنبؤُ بها. عرفتُ أنه بحالته هذه لن يحس بي إذا ما التصقتُ بجلد رقبته؛ لكنني ترددت قليلاً؛ إذ من الصعب التكهن

بما يمكن أن يفعله هذا الكائن الهائج المعقد. قررت أن أستقر على حافة القماش الذي يغطي به رأسه، قبل أن أتسلل بقفزتين رشيقتين إلى رقبته، بجانب جدول عرق صغير نَبَعَ من مكانٍ ما من جمجمته المتوهجة وامتد حتى أسفل ظهره. شفطات متأنية من ذلك العرق أشعرتني بسعادة غامرة ودغدغت مساماتي البخارية. عدت بقفزة بهلوانية إلى موقعي على حافة القماش. نظفت نفسي قليلاً، ثم مشيت صاعداً حتى حافتها الأمامية.

كنا قد وصلنا ساحة القرية، وبسرعة اقتربنا من كائن بشري آخر يلبس دروعاً قماشية ذات ألوان زاهية. كان جالساً القرفصاء بجانب صحن كبير بداخله صحن آخر ممتلئ بما تبقى من حقين، وكوب شاي فارغ، وبعض قطع مختلفة الأحجام من الخبز. يا لها من غنيمة غير متوقعة! طرتُ بسرعة هابطاً نحو ذلك الصحن، وحوّمتُ قليلاً قبل أن أقف باعتزاز على حافة الكوب، وقد تمرغت أقدامي جميعها بلزوجة السكر. «رائع!... من أين أبدأ؟» احترت قليلاً، وهذا أمرٌ أقلقني بالطبع، فالحيرة مرض خطر، وقد أكون مريضاً. لكن ما إن هممت بالطيران إلى حافة الصحن حتى كان ظل الشخص الذي كنت أمتطيه قد اقترب من ظل ذلك الجالس، الذي ما لبث – بدوره – أن نهض من مكانه هلعاً، وبدأ هدير شجار يرتفع في المكان. ليتهما يسكتان! ربما كان باستطاعتي – إذاً – أن أتذكر قراري الذي اتخذته قبل قليل. وبينما كنتُ أعيد خطوات اتخاذ القرار، رأيت ظل مسدس يرتسم على التراب،

قبل أن تنطلق منه عاصفة صوتية رهيبة اهتز لها كوب الشاي، وجرفتني في الفضاء قليلاً، مشوش الفكر، فاقداً التوازن.

استعدت توازني. حلقت مرتفعاً، بعد أن امتلأ المكان برائحة البارود السام. كان ذلك البشري، بدروعه القماشية ذات الألوان الزاهية، قد تمدد، وسالت الدماء من تحت رقبته، وامتزجت بتراب الساحة. كنتُ لا أزال أنظر إلى جثته الهامدة تماماً، حين رفع البشري الآخر المسدس نحو رأسه لتنطلق منه عاصفة صوتية أخرى جرفتني في الفضاء لكن أقل من المرة السابقة. وما إن استعدت توازني حتى كان جسده قد تمدد بجوار الجسد الآخر، واختلطت الدماء بعضها ببعض. طرت فوق الجثتين. كانت رائحة الدماء الممزوجة بالتراب طرية، وعما قليل ستتخثر وستنعش الحواس الشمية لعدد غير قليل من الحشرات التي ستملأ المشهد بصخب كرنفالي رائع. احترت الآن أكثر! هل أعود إلى حافة كوب الشاي الممتلئ ببقايا السكر؟! أم أنتظر قليلاً كي أكون من أوائل من سيتمرغ في ذلك العفن الدموي اللذيذ؟! قال لنا المعلم الرمادي إن حيرة الذباب مرضٌ خطر، ودليلٌ على ضعف في البصيرة، وعادة ما تكون نتيجته غير محمودة العواقب. لكنني احترت فعلاً، وتتكرر حيرتي أكثر كلما استرجعت ذكرى ذلك اليوم المشمس الذي كنت أحلّق في فضائه دون أن أعرف إلى أين.

شيفلد، بريطانيا - خريف 2012

موت جثة

يقال إن مدير عام شركتنا، قبل أن يموت منذ سنتين، كان شخصية غامضة لا تحظى بالشهرة نفسها التي لها اليوم؛ لكن إنجازاته بعد ذلك، منذ أن بدأ حياته الجديدة كجثة محنطة، جعلته واحداً من أهم مديري شركات الفحم في البلاد، بل وفي الإقليم كله. وعلى الرغم من أن نشاطاته الاجتماعية خارج العمل أصبحت نادرة، فإن شعبيته كانت تزداد يوماً بعد يوم، فقد نذر الفائض من حياته للعمل، وكرَّس كل جهوده في سبيل ابتكار أساليب جديدة وعصرية في إنتاج وتصدير الفحم الوطني.

كانت الجثة في معظم الأيام تبدو رطبة وحارة، كما لو أنها خرجت للتو من حمام تركي... يأتي بها سائقه العجوز كل صباح إلى مقر الشركة، قبل أن يحملها اثنان من الموظفين، تم التعاقد معهما خصيصاً لهذا الغرض، ويضعانها برفق فوق كرسي مكتبه الفاخر، ليبدأ برنامج عمله اليومي المنتظم بكل حيوية ونشاط...

يكون عادة في استقبال جثة المدير العام سكرتيرة مكتبه، الحسناء، التي تم التعاقد معها بعد صفقة رابحة مع متحف المومياء الوطني، إلى جانب مستشار الشركة، الأستاذ عبد الهادي، الذي كان يتأكد، في البدء، من درجة حرارة المكيف، قبل أن يضع بعض الملفات أمام المدير، آمراً الجميع بالانصراف. يحدث هذا كل صباح بعد أن يكون العم قاسم قد وضع على مكتب المدير العام أصيص زهور يانعة، وكوب النسكافيه بنكهته الذهبية بدون كافيين، وبرائحتها الزكية التي يعبق بها المكتب طوال اليوم، بل وجميع مكاتب الشركة، بعد أن صدر التعميم الإداري الأخير بجعلها المشروب الرسمي والوحيد في الشركة.

***

كانت الجثة ضخمة؛ لكنها متناسقة، بوجه سمين مترهل الوجنتين، تراقب زوارها وموظفيها، بمهابة صامتة، من خلال نظارتها السوداء ماركة «كاريرا»، التي أهداها لها أحد أصدقائها

من السفراء الأجانب. لم تكن تصدر عنها أية رائحة كريهة، بل إن الذين يحظون بفرصة الاقتراب منها يؤكدون أنهم عادة ما يشتمون روائح عطورٍ غالية الثمن. تلبسُ بدلات رسمية بماركات عالمية، يتناسق لونها مع لوني ربطة العنق والحذاء اللامع غالي الثمن ولون القميص ذي الأكمام الطويلة بأزرارها الذهبية. حتى هاتفها الذكي، الذي لا تستعمله كثيراً، كان يُغلف كل صباح بلون مناسب للبدلة. باختصار، كانت الجثة نموذجاً للأناقة الباذخة، تكاد من فرط أناقتها أن تضاهي تماثيل فاترينات معارض الملابس الراقية. أما شعرها الكثيف، الذي غزته بعض مساحات متفرقة من الشعر الأبيض، فكان مناسباً للعمر الذي مات به صاحبها: شاباً في السادسة والستين.

***

عندما ينتهي المدير العام من عمله اليومي، في تمام الثانية عشرة والربع، يأتي الموظفان ليحملاه إلى السيارة. وما إن تستقر الجثة على الكرسي الخلفي حتى يقوم السائق العجوز بربط حزام الأمان عليها وإغلاق الباب بإحكام، قبل أن ينطلق بالسيارة عائداً بها إلى المنزل.

***

تعدّ شركتنا واحدة من كبرى الشركات الرائدة في الوطن. وعلى

الرغم من أن بلادنا لم تكن في الماضي تعتمد على الفحم كمصدر للإنتاج؛ فإنها في السنوات القليلة الماضية أصبحت واحدة من أهم دول الإقليم في صناعته وتصديره، جاعلة من الفحم أحد أهم مواردها المالية، وعنصراً مهماً في اقتصادها الوطني.

كم أشعر بالافتخار وأنا أشاهد منتجات شركتنا الوطنية وهي تتصدر لوحة الإعلانات الضخمة في ميدان التحرير والشوارع التجارية الكبرى! أو عندما تظهر على صفحات الصحف والمجلات، خاصة في تلك الإعلانات الملونة التي تظهر على ورق مصقول وفاخر، ويظهر فيها المدير العام، وقد عكست نظارته السوداء الباذخة صورة «الجائزة الدولية لتصدير الفحم» التي حصل عليها مؤخراً! أما عندما تظهر إعلانات شركتنا على شاشة القناة الوطنية الأولى، أو شاشات القنوات الفضائية الصديقة، فلكم أن تتخيلوا مقدار سعادتي واعتزازي...! يلتصق وجهي بشاشة التلفزيون، ولا أستطيع أن أمسك نفسي عن ذرف الدموع، كالعادة، خاصة عندما أسمع نشيد شركتنا الرسمي في نهاية الإعلان بموسيقاه السيمفونية الرائعة، وصوت كورال الشباب الشجي يصدح: «أمة رائدة، تحت راية فحمنا الوطني».

***

يقال إن أحد أهم أسباب نجاح مديرنا العام هو مهارته الكبيرة

في توزيع أعمال الشركة على المتخصصين، واختياره كوادر ذات كفاءة عالية كمستشارين له، وإعطاؤهم صلاحيات تنفيذية كبيرة. كان على رأسهم الأستاذ عبد الهادي، الذي استطاع بخبرته الطويلة رسم سياسات الشركة بنجاح. يقال أيضاً إن الأستاذ عبد الهادي هو مهندس وسائل التواصل الحديثة بين المدير العام وبقية الموظفين في الشركة. في البدء كان الأمر صعباً، فقد كانت تنقصنا المهارات اللازمة لفهم الأوامر التي تصدرها جثة المدير العام، أو التواصل الشفهي معها؛ لكننا، بعد عدد من الدورات التدريبية الخاصة برفع القدرات الذهنية، التي أقامها الأستاذ عبد الهادي بنفسه، أصبحنا نعرف تماماً كيفية التواصل الإداري الحديث مع المدير العام. التواصل هذا يحدث طبعاً بمساعدة الأستاذ عبد الهادي، الذي يقوم مثلاً برفع يد المدير العام اليمنى والتلويح بها مرة واحدة لكي نفهم اعتراضه، أو مرتين لنفهم موافقته، أو وضع يده اليسرى على صدره لنفهم انتهاء الاجتماع... وهكذا. نعم، أصبح الأمر سهلاً إلى الحد الذي أصبحنا نحن، مع مرور الوقت، نستخدم هذه اللغة الإدارية الحديثة في ما بيننا بطلاقة.

***

في الاجتماع الشهري لمديري الإدارات، أحرص على أن يكون مظهري أنيقاً، لهذا أقوم باستعارة بدلة أخي الزرقاء، وأتوجه باكراً كعادتي إلى العمل لأكون في مكتبي قبل وصول الأستاذ أمين،

مدير إدارتنا، حفظه الله، الذي يدهشني عادة بأناقته، خاصة في هذا اليوم، الذي يتوسط فيه المدير العام الطاولة البيضاوية الكبيرة، وبين إصبعين في كفه اليسرى يمكث بوقار سيجار كوبي فاخر. بجانبه تماماً على اليمين يجلس الأستاذ عبد الهادي، بينما يتوزع المديرون، ببدلاتهم الأنيقة، على جانبي الطاولة. يستمع المدير العام باهتمام لجدول أعمال الاجتماع، الذي يقرؤه مقرر الاجتماعات. وبإشارات مختلفة من يده اليمنى، التي يرفعها برفق الأستاذ عبد الهادي حسب الموضوع المطروح، يصدر توجيهاته بسرعة فائقة، ويدوّنها الجميع بلا استثناء قبل أن ينفض الاجتماع بإشارة نهائية من يده اليسرى.

***

لم يكن عبد الرزاق شخصية متذمرة على الإطلاق! حتى لو أراد أن يتذمر فلن يستطيع؛ وهكذا عاش حياته سعيداً، دون أن يألو جهداً ليعرف سبباً لهذه السعادة. منذ أن توظف أول مرة في الشركة، حارساً مدنياً، قبل عشر سنوات، إلى أن ترقى وأصبح رئيساً لقسم الترتيب والأرشفة الداخلية، الشهر الماضي، لم يتذمر مرة واحدة، أو يقدم شكوى من أي نوع. خلال سنوات عمله، كان يشعر بالرضا التام وهو يقوم بما يوكل إليه من قبل رؤسائه المباشرين، بل إنه لم يستطع في يوم من الأيام أن يفهم لماذا يتذمر بعض الموظفين والمديرين في الشركة، أو يرفعون الشكاوى من حين إلى

آخر!! بالتأكيد لم يشاركهم أياً من اجتماعاتهم أو اعتصاماتهم الاحتجاجية، التي كان يصفها مديره المباشر، الأستاذ أمين، بالخيانة غير المبررة. كان هذا في الماضي، أما الآن فالحمد لله، لم يعد هناك أي اجتماعات أو اعتصامات من أي نوع، فقد استطاع المدير العام، خلال العامين الماضيين، بحنكته ودهائه، ومساعدة المخلصين من مديري الإدارات وموظفي الشؤون المالية، تنقية الشركة من كثيرٍ من عناصر الفوضى والتذمر؛ تلك العناصر التي، كما وصفها المدير العام في أحد الاجتماعات العامة، لا عمل لها سوى الانتقاد ومحاولة عرقلة سير الإنتاج المتصاعد للشركة.

***

لبستُ بدلة أخي الزرقاء، وتأنقت بربطة عنق مناسبة، ووصلت إلى الشركة مبكراً، فاليوم كان موعد الاجتماع الشهري. عندما دخلت باب الشركة الرئيسي لاحظت صمتاً مريباً يلف المكان! لم أجد أياً من حراس الشركة المدنيين في مكانه!... انتابني قلق مبهم... صعدت إلى الدور الأول متوجساً بعد أن لاحظت أن موكيت السلم كان مبتلاً بشكل لافت للنظر... كانت المكاتب والممرات خالية تماماً، وكانت أرضيتها مبتلة أيضاً... «غريب...!»، حدثت نفسي ونظرت إلى ساعتي الرقمية لأتأكد من الوقت. لم أكن مبكراً أكثر من اللازم! أصخت السمع... كان بالإمكان سماع صوت بكاء في الأعلى. صعدت السلم إلى الدور الثاني، حيث مكتب المدير العام،

فهالني ما رأيت! وجدت الحراس المدنيين وعدداً من الموظفين بينهم مديرو الشؤون المالية يقفون بحزن واضح خارج مكتب المدير العام. كان هناك أيضاً العم قاسم، بيده كوب القهوة الذهبية بدون كافيين الخاصة بالمدير العام، والأستاذ أمين، مديري المباشر حفظه الله، والموظفان اللذان يقومان بحمل جثة المدير العام كل صباح... كانوا جميعاً هناك، مطأطئي الرؤوس، يجهشون بالبكاء، دموعهم تسيل بغزارة مكونة شلالات صغيرة أغرقت موكيت أرضية الشركة. عند باب مكتب المدير العام كان الأستاذ عبد الهادي واقفاً بشموخ، يمسح بمنديله الأنيق نظارته الطبية، محاولاً إخفاء دموعه التي سالت بغزارة على وجنتيه وبللت ثيابه تماماً... من داخل المكتب كان بالإمكان سماع بكاء السكرتيرة الحسناء بوضوح من بين بكاء الموظفات الأخريات اللواتي اجتمعن حولها في حلقة صاخبة من العويل. ماذا حدث يا ترى؟! سألت نفسي بتوجس؛ لكن لم تمر سوى ثوانٍ قليلة حتى استطاع عقلي الصغير أن يدرك فاجعة ما حصل! لقد مات المدير العام مرة أخرى، بعد سنتين فقط من موته الأول! هل يمكن أن يحدث هذا حقاً؟! المعروف أن خبراء تحنيط مديري العموم أكدوا أن جثة مديرنا العام كانت صالحة للحياة والعمل لمدة سبع سنوات على الأقل... كيف ماتت الجثة بهذه السرعة؟! يا لهول الفاجعة! كيف سنعيش بعده؟! وماذا سيكون مصير الشركة، ومصيرنا؟!

وبينما كنت مأخوذاً بهذه الأسئلة لاحظت أن الجميع كانوا يرتدون ملابس سوداء. حينها تأكدتُ من صحة هواجسي وشكوكي، ونظرت بفزع إلى ملابسي الزاهية الألوان، فشعرت بالإحراج الشديد، ثم ما لبثتُ أن أحسستُ بغصة في حلقي، وبدأت معدتي تضطرب كما لو أنها ابتلعت حجراً ثقيلاً... شعرتُ بصعوبة في التنفس، ورويداً رويداً انقطعتْ أنفاسي تماماً... كنتُ أموتُ دون شك... فنبضات قلبي توقفت، والضوء بدأ يتلاشى من حولي، وعقلي بدأت تغزوه ظلمةٌ باردة... تشنجتْ أعصابي... حاولت الصراخ دون جدوى... وما هي إلا لحظات حتى فقدت وعيي تماماً قبل أن أستيقظ من النوم مرعوباً... كنتُ ألهث في فراشي المبتل بالدموع وبالعرق، وكان حلقي جافاً، وشفتاي ترتعشان... ركضتُ إلى الحمام وغسلتُ وجهي مراراً بماء الحنفية البارد... نظرتُ في المرآة... كان وجهي شاحباً، وعيناي مرهقتين من ذرف دموعٍ غزيرة... بعد لحظات صمتٍ عميق استطعت أن أهدئ من روعي، وعاد تنفسي إلى انتظامه... لقد كان كابوساً... بل الكابوس نفسه لليوم الثالث على التوالي! جمعتُ شتات نفسي المضطربة، وشربتُ من ماء الحنفية البارد، وتنفستُ الصعداء... «لا بد أن أذهب إلى طبيب نفساني...!»، حدثت نفسي، وغسلتُ وجهي مرة أخرى قبل أن أعود إلى سريري منهكاً، تجول في ذهني أفكارٌ سوداء استطعت بجهد طردها، وانتعشت آمالي من جديد، فلا تزال جثة مديرنا

العام على قيد الحياة، وغداً سيكون يوم عمل جديد في الشركة، لنواصل مشوار نجاح وتطوير شركة فحمنا الوطني الغالية... نعم كل شيء على ما يرام... حدثت نفسي قبل أن يغالبني النعاس وأغرق في النوم مرة أخرى.

شيفلد، بريطانيا – صيف 2013

***

ربما لا يقصدني...!

«ربما لا يقصدني!... ربما هو غارقٌ في التفكير بشيء ما!...».

طمأنتُ نفسي، وأنا أحاول مرة أخرى أن أتجاهل نظراته التي أصبحت تزعجني بحق.

***

كان يوماً خريفياً غائماً وبارداً؛ لكن الجو، لحظة وصول الباص إلى محطة الانتظار، كان مشمساً. كان الباص قد تأخر كثيراً كعادته، حتى كدتُ

أتجمد من البرد، خاصة أنني كنت قد نسيت كعادتي أن ألبس قبعتي الصوفية.

أظهرتُ تذكرةَ الباص الأسبوعية للسائق، فهزَّ رأسه بطريقة آلية دون أن ينظر إليها. جلستُ متهالكاً في مقعد بعيد عن الباب، الذي كانت تنفذُ منه سكاكينُ رياحٍ باردة.

لم يكن الباص قد تحرك عندما التقت عيناي بنظراته الحادة أول مرة. ابتسمتُ له بتصنُّع، ونظرتُ بعيداً كما جرت العادة في مثل هذه المواقف. كان كهلاً متذمراً يجلس في المقعد المقابل لمقعدي، له وجه ممتعض؛ أحمر وسمين، وشعرٌ أبيض كثيف، وكان يمسك عصاه الطبية بكلتا يديه كما لو كان يخنقها، وقد مطّ شفتيه إلى الخارج أكثر من اللازم.

عندما تحرك الباص نظرتُ نحوه بتعمد فوجدته لا يزال يحدق نحوي بنظرات حادة ومستفزة، وقد ارتسمت على وجهه علامات غضب جارف. قررتُ ألا أتجاهل نظراته هذه المرة؛ فلا بد أن نظراتي المصوَّبة نحو عينيه مباشرة ستجعله يستيقظ من شروده وتشعره بالحرج، وبالتأكيد ستجبره على النظر بعيداً... هكذا تنتهي الأمور عادة! أعرف هذا من خبرتي البسيطة. لكنه لم يفعل؛ بل كنتُ أنا، تحت وقع المفاجأة، من أرسل نظره بعيداً، وقد شعرت بالخجل والانزعاج أيضاً.

«لماذا ينظر نحوي هكذا؟!»، سألت نفسي، وقد شغلني هذا الأمر عن الاستمتاع بالدفء الحنون الذي بدأ يتسلل إلى عظامي الركيكة المتجمدة؛ عظامي التي لم تكن قد تعودت على هذا البرد، ولا كان صاحبها قد تعلم كيف يلبس كما ينبغي اتقاء له، منذ جاء مهاجراً غير شرعي، بعد عناء شديد، إلى الجزيرة البريطانية.

***

كان الباص قد انعطف يساراً نحو «شارع بيتسمور» عندما لملمتُ شجاعتي، وقررتُ أن أنظر إليه مجدداً... كان لا يزال يحدق بي، تكاد شفتاه تطلقان سيلاً من اللعنات نحوي، أو هكذا تخيلت. أشحت بوجهي نحو النافذة، محاولاً أن أقلِّب ذاكرتي، فربما أكون قد صادفته في مكان ما!... كلا!... لم يكن وجهه مألوفاً... ليس من الجيران بالتأكيد... نعم... لم أكن قد رأيته من قبل.

***

«ربما لا يقصدني!... ربما هو غارقٌ في التفكير بشيء ما!...».

طمأنت نفسي، وأنا أحاول مرة أخرى أن أتجاهل نظراته التي أصبحت تزعجني بحق.

***

«هل يعرفني؟!»، سألت نفسي بينما كنت أتظاهر بتصفح

جريدة «المترو» المجانية... «ربما التبس الأمر عليه وشبّهني بشخص يعرفه!... هذا محتمل... أوه! مازال ينظر إليّ!... ماذا يريد بحق الجحيم؟!». تمنيتُ حينها لو أنه أفصح عن الأمر وتحدث، أو حتى قذف بشتائمه عليّ... لا يهم!... على الأقل سينتهي كل شيء حين يدرك أن في الأمر خطأً ما، وأنني لست الشخص الذي يظنه!... نعم، سينتهي الأمر على أية حال؛ أما هكذا فقد أصبح الأمر مزعجاً حقاً!...

***

كان الباص قد توقف في إحدى المحطات لنزول بعض الركاب. انتهزتُ الفرصة وقررتُ أن أنهض وأجلس في أحد المقاعد الخلفية الفارغة بعيداً عنه، متعمداً اختيار مقعد في الجهة الأخرى من الباص، حيث يصعب عليه ملاحقتي بنظراته، أو هذا ما كنت أظنه، فما إن جلستُ في مقعدي الجديد، متوارياً عنه، حتى غيّرَ مكانه، ليجلس في مقعد مقابل غير بعيد عن مكانه السابق، وبدأ في التحديق نحوي مرة أخرى.

***

لا أعرف كم مرَّ من الوقت؛ لكن الباص كان قد قطع مسافة لا بأس بها، وكان هو لا يزال يحدق نحوي متمتماً بصوت مرتفع أدركت أنه كان سبّاً مقذعاً دون شك. كان كصياد عثر على فريسته

التي حاولت الاختباء دون جدوى. إذن، لم يكن غارقاً في التفكير كما ظننت، أو كما أحببت أن أظن؛ بل هو يقصدني دون شك!... ماذا عليَّ أن أفعل؟! قررتُ أن أتجاهل الأمر تماماً هذه المرة، فأنا في غنى عن أية مشاكل إضافية، فمنذ أن قررت الهجرة إلى هنا وأنا في سلسلة غير منتهية من المشاكل والمغامرات غير محسوبة النتائج، ولولا أن ما قد أنفقته من جهد وصبر ومال حتى الآن أكثر بكثير مما توقعته لسلمتُ نفسي طواعية إلى مكاتب الهجرة، وطلبت منهم ترحيلي إلى بلادي مرة أخرى. «too late!»، هكذا يقولون هنا... وهكذا هو الأمر معي.

***

مرَّ بعض الوقت ولا يزال الوضع على ما هو عليه. حينها لملمتُ شجاعتي وقررت أن أذهب إليه وأسأله، وأنهي هذا الأمر الذي أصبح مهيناً حقاً؛ لكنني تذكرت أنه ربما لن يكون باستطاعتي فهم ما سيقوله، ولا الرد عليه بما يجول في رأسي من حجج دفاعية مقنعة تضع حداً لسلوكه غير المهذب، فلغتي الإنجليزية لا تزال دون المستوى، ولهجته اليوركشيرية، التي يتحدث بها الناس هنا، ستزيد الطين بلة... نعم، سأمنى بفشل ذريع دون شك. قررتُ أن أتأنى في ردة فعلي، وأن أشغل نفسي بتقليب الاستمارات الكثيرة التي تسلمتها من مكتب الإعانة الاجتماعية المقيت؛ فهو دون شك سينزل في محطة الانتظار القادمة، أو ربما التي تليها، وإن

لم يفعل نزلتُ أنا قبله، ولن آبه لما سيقوله لي. سأتجاهله تماماً، فليست المرة الأولى التي أضطر إلى أن أستلهم فيها روح صنم متحرك. نعم، سأتجاهله تماماً مهما حدث!

***

لم ينزل في المحطة كما تمنيت... ولا يزال يحدق نحوي؛ وشتائمه ترتفع أكثر من ذي قبل... وها هم الركاب بدأوا ينظرون نحوي أيضاً! «يا إلهي! ما الذي يحدث؟!». غمرني قلقٌ مهزوم، وشعرتُ بالخوف وبجفاف مباغت في حلقي. قررتُ إن هو لم ينزل في المحطة القادمة نزلتُ أنا فيها، وأكملتُ المشوار سيراً على الأقدام. صحيح أن الجو بارد، وقد أصاب بالزكام؛ لكنني لم أعد أحتمل! المشي في الأرصفة الباردة أرحم بكثير من كل هذه الوجوه التي بدأت تحدق نحوي بغضب واستهجان مخيف. لا بد أنه كسب تعاطفهم! لا يهم... لن أعيرهم أدنى اهتمام؛ بل إنني حين أمرُّ بجانبه سأحدثه بشجاعة. سأقول له أي شيء؛ إذ لا يمكنني أن أخرج هكذا دون كلمة. سأقول له مثلاً: «Good bye»... ماذا؟! بالطبع لا!... لا يستحقها. سأقول له: «What do you want?»... انتظرْ! هذا سؤال سيتطلب منه إجابة... لا!... ليس لديّ الوقت، ولن أتيح له أية فرصة للنيل مني. حسناً، سأقول له: «You are not a nice man»... هذا ممكن... أو أي شيء من هذا القبيل... لا يهم... المهم أن أقول له شيئاً يرد لي اعتباري!

***

متلهفاً انتظرتُ اقتراب محطة الانتظار، وقبل أمتار قليلة من وصول الباص إليها ضغطتُ على زر التوقف الأحمر، ونهضتُ من مقعدي، وتوجهت بسرعة إلى باب الباص غير آبه بشتائمه، ولا بتلك الوجوه الغاضبة التي كانت تتابعني بنظراتها العدائية... كنت بالفعل قد استلهمت روح صنم متحرك.

عندما توقف الباص وفُتح الباب لملمتُ شجاعتي مرة أخرى ونظرت إليه بتحدٍّ؛ لكنني لم أقل له شيئًا، بل اجتزته بكبرياء... حينها، ويا لهول المفاجأة، شعرتُ به يقف ويستدير نحوي رافعاً عصاه عالياً... فعل ذلك بسرعة كما لو كان شاباً في العشرينيات من العمر يطارد لصاً هارباً!

ابتعدتُ بسرعة، وقذفت نفسي خارج الباص، وانبطحت أرضاً، لتتبعثر أوراقي وأشيائي التي كنتُ أحملها في كيس بلاستيكي انبطح هو الآخر بعيداً عني... كانت السقطة مؤلمة حقاً... عضضت على أسناني من الغيض والتفتُّ إلى الخلف... كان باب الباص الزجاجي قد أُغلق، ووجه ذلك الكهل الأحمق قد التصق بزجاج الباب، مكشراً عن أنيابه، بينما كانت كفه اليمنى تصنع بأصابعها إشارة بذيئة استطاعت أن تحرك بعنف أمواج الطيش والحماقة بداخلي، فما كان مني إلا أن التقطتُ، بلا وعي، حجراً من الأرض صادف وجوده بجانبي، ورميتُ به بعنف نحو ذلك الوجه الملعون، ليتهشم زجاج الباب تماماً قبل أن أطلق لساقيَّ المرتعشتين

العنان، وأفرّ بسرعة، مخلفاً ورائي الباص، ووجه ذلك الكهل اللعين، وأشيائي المبعثرة على الأرض، وصوت السائق الذي ظل يصرخ بي دون جدوى...

***

في مكتب زجاجي صغير، في الدور الأول من مبنى «سنتر بوينت» في وسط المدينة، أخرج المفتش «جيمس كروك» من صدره زفرةَ ملل وهو يقلّب أوراق الملف الذي بين يديه قبل أن ينظر نحوي بهدوء قائلاً:

مستر كاسيم! لا بد أن تفهم أنك ارتكبت عملاً تخريبياً يستوجب العقاب القانوني...

وقبل أن يتسنى لي أن أفتح فمي أكمل كلامه، الذي كنت قد سمعته مراراً:

كما أن التحريات أثبتت أنك تعيش في هذه البلاد بشكل غير قانوني...

أااا...!

نعم، نعم... أعرف ما تريد قوله... لقد سمعنا مبرراتك أكثر من مرة؛ لكننا، كما تعلم، قد أخبرناك من قبل أن سائق الباص أكد أنك

كنتَ الراكب الوحيد عندما سقطتَ أرضاً، وأن كل ما ذكرته عن ذلك الرجل العجوز، أو بقية الركاب، لا أساس له من الصحة... لا يبدو عليك أنك تتعاطى أي نوع من المخدرات مستر كاسيم؛ لكن عليك أن تعرف أنك في وضع حرج!

كنت أريد أن أقول شيئاً مختلفاً هذه المرة؛ لكن المفتش «كروك» كان قد نهض من مقعده، حاملاً معه الملف، وغادر غرفة التحقيق التي امتلأت جدرانها الزجاجية بعشرات الوجوه الغاضبة التي كانت تحدق نحوي بلا رحمة، وتصنع بأصابعها إشارة بذيئة.

شيفلد، إنجلترا 2013

الفهرس



عزيز العرباوي
رمزية الماء في التراث
الشعري العربي
العدد 87





همدان زيد دماج
ربما لا يقصدني
العدد 088
توزع مجاناً مع مجلة الرافد
فبراير 2015

مهرجان أضواء الشارقة
Sharjah Light Festival
2015
5 - 13 Feb

Sharjah Arab Tourism Capital
الشارقة عاصمة السياحة العربية
2015

مهرجان أضواء الشارقة

يضيء خيالك